

الليتورجيا الأرثوذكسية: لاهوتها وروحانيتها، الجزء الأول بقلم المتربوليت سابا (اسبر)

إذا أردنا أن نتكلم عن الليتورجيا، يجب أن نتكلم عن الطعام. لأنَّ الليتورجيا طعام الأرثوذكسيّ وغذاؤه.

يعرف فوورباخ، الفيلسوف الألمانيّ الإنسان، بأنه ما يأكل، هذا الذي يبدو، في الظاهر مادياً، يعبر، بالحقيقة، عن أبرز فكرة دينيّة بشأن الإنسان.

ففي رواية الخلق، يبدو الإنسان كائناً جائعاً، ويبدو العالم لديه، طعاماً، من هنا، لما وجّه الله آدم وحوّاء لأن ينموا، ويكثرا ويملاّ الأرض، ويتسلطّ عليها، كما في الفصل الأول من سفر التكوين، أوعز إلى الناس أن يأكلوا من الأرض: "قد أعطيتكم كلّ بقلٍ ييزر بزرّاً، وكلّ شجر ييزر بزرّاً، لكم يكون طعاماً" (تك ١: ٢٩).

لابدّ للإنسان من أن يأكل ليعيش، عليه أن يتناول العالم في جسده ويحوّله إلى نفسه، إلى لحم ودم فهو، فعلاً ما يأكل، كلُّ العالم لديه مائدة جامعة، إن صورة المائدة، عبر الكتاب المقدّس، جملةً، هي الصّورة المحوريّة عن الحياة، تصوّر الحياة في بدء الخليقة، وتصورها في منتهاها وكمالها: "...لكي تأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي" (لو ٢٢: ٣٠). لذا يحتلُّ سرُّ الإفخارستيا المركز الأساس في الليتورجيا الأرثوذكسية، فمن مائدة الربّ، التي يتحلّق المؤمنون مع كاهنهم حول الكأس الموضوعة عليها، يتمّ الاتحاد الكامل بين الإنسان والله في جسد المسيح ودمه، مائدة القدّاس الإلهيّ صورة حقيقيّة للملكوت الآتي: "لأنّ جسدي مأكّل حقّ، ودمي مشرب حقّ، من يأكل جسدي، ويشرب دمي، يثبت فيّ وأنا فيه" (يو ٦: ٥٥-٥٦).

نرى في الكتاب المقدس، أنّ الطّعام الذي يتناوله الإنسان، وكذلك العالم الذي عليه أن يشترك فيه ليعيش، هذان قد أعطيا له من الله، كما أعطيا له بمثابة شركة مع الله، والعالم بصفته طعام الإنسان، ليس شيئاً "مادياً" محدوداً بوظائف ماديّة، تتعارض والوظائف الرّوحانيّة الخاصة، والتي يتصلّ الإنسان بالله بواسطتها. فكلّ ما هو موجود على الأرض، هو هبة الله للإنسان، والقصد منه هو جعل الله معروفاً لدى الإنسان، وجعل حياته حياة شركة مع الله.

الإنسان كائن جائع، نعم، لكنّه جائع إلى الله، فوراء الجوع في حياتنا يكمن الله.

تنطلق الليتورجيا الأرثوذكسية، من النظرة الأرثوذكسية للإنسان، تلك التي تقول: أن للإنسان، في الكون موقعاً يميّزه عن سائر المخلوقات، لأنّه الوحيد الذي يبارك الله على كلّ ما يتلقاه منه، من طعام حياة، هو الوحيد الذي يبارك الله، استجابة لبركة الله له.

إنّ ردّ الفعل الطبيعيّ الوحيد، لا الفائق الطبيعة عند الإنسان، بعدما أعطاه الله هذا العالم المبارك المقدّس، هو أن يبارك الله بالمقابل، أن يرفع إليه الشكر، أن يرى العالم كما يراه الله، ومن ثمّ أن يعرف العالم، ويدعوه بأسماء، ويمتلكه.

لذلك يُعتبر الإنسان كاهناً في الإيمان الأرثوذكسي، إنّهُ مدعوّ إلى تقديم العالم لله ثانيةً، بعد تنقيته وتقديسه. إنّهُ مدعوّ إلى تقديس العالم، ليعود كما كان قبل السُّقوط. يقف الإنسان في وسط العالم، ويوحّده، ويبارك الله عليه، يتلقاه منه، ويقدمه إليه: "التي لك، ممّا لك، نقدّمها لك، في كلّ وجه، ومن أجل كلّ شيء" (من القدّاس الأرثوذكسيّ).

إنها إفخارستيا المسيحيّ، أن يحوّل حياته، إلى حياة من الله وإلى شركة معه، من أجل هذا خلق الله العالم، من أجل أن يكون مادّة، وأداة لسرّ شكرٍ واحد وجامع. ومن أجل هذا خلق الله الإنسان، من أجل أن يكون كاهناً لهذا السرّ الكونيّ.

الإنسان قادر على أن يعيد تشكيل العالم وتعديله، على أن يعطيه معنىً جديداً بالكليّة. لتتذكر سوياً أنّ المهمة الأولى التي أُعطيت للإنسان؛ كانت أن يعطي أسماءً للأحياء (تك ٢/١٩-٢٠). ولنتذكر أنّنا نقدّم في القدّاس الإلهيّ لله أثمار الأرض، لا بشكلها الأوّليّ، وإنّما بالشكل الذي أعطاه إياه الإنسان ثانية: فلا نقدّم على المذبح حزماً من القمح بل خبزاً، ولا عناقيد عنب بل نبيذاً.

تلعب الليتورجيا الأرثوذكسية دوراً أساسياً في هذا المجال، لأنّ هدفها إقامة صلة حيّة، بين الله والإنسان. تعيد هذه الصّلة تشكيل الانسان، ليكون على الصّورة الإلهيّة، التي أرادها الله له منذ بدء الخلق. فالإنسان السّاقط يحتاج إلى تغيير كيانيّ ليكون كما أراد الله كاهناً لهذا الكون. لهذا، تشدّد الليتورجيا الأرثوذكسية كثيراً على التوبة، وتذكرها في كلّ الخدم، حتى أنه يصعب على المصلّي الأرثوذكسيّ الصّادق أن لا يحيا في توبة مستمرة.

فالليتورجيا الأرثوذكسيّة ليست مجرد فعل عبادة فردي، ولا هي مجرد طقوس احتفاليّة تذكّر المؤمن بالرّب، وما عمله من أجل خلاصنا. ليست مجرد انسكاب عواطف بشريّة أمام الله، ولا فروضاً واجبة على المؤمن، يؤدّيها لكي يريح ضميره، بأنّه تمّم واجباته الدّينيّة.

إنّها أعمق من هذا كلّه، إنها فعل جماعيّ، شكريّ تحويليّ .

هي فعل جماعيّ: هذا ما يدلّ عليه الاسم نفسه، "ليتورجيا" معناها عمل تقوم به فئة من النّاس، فتتحوّل إلى جماعة ذات كيان مشترك واحد، وقد كانت، قبل ذلك، مجموعة أفراد؛ الكلّ هنا أكثر من مجموع الأفراد. هذه الوحدة تتحقّق بالكامل، في سرّ الإفخارستيّا، بالاتّحاد بجسد الرّب ودمه.

وهي فعل شكريّ: لأنّ كلّ خدمة ليتورجيّة، تحوي مقاطع كاملة شكرية وتسبيحيّة، تسبّح الله على ما أعطانا من أجل خلاصنا. لا تكفّ النّصوص اللّيتورجيّة الأرثوذكسيّة عن تسبيح الله وشكره ووصفه بالإله "الصّالح والمحّبّ البشر". لتذكر هنا أنّ معنى كلمة أرثوذكسيّة هو "التّسبيح المستقيم".

وهي فعل تحويليّ، لأنها تحوّل المجتمعين في الكنيسة، من كتلة تراصّ بشريّ، إلى جسد المسيح، وتحوّل العالم من ساقط إلى متألّه. إنّها تشدّد الإنسان إلى الملكوت، وتعطيه زخماً لكي يبدأ هذا الملكوت من الآن وهنا.

نتوحد في اجتماعنا، ونشكر ونسبّح بفرح، ونتحوّل إلى كائنات متألّهة، تحوّل العالم الذي بين يديها إلى ملكوت صغير، فيتذوّق أحبّاء المسيح ملكوته قبل اكتماله فيهم، في الحياة الثّانية.

تتحقّق الكنيسة، وتصير كنيسة، بمعنى أنّها جسد المسيح الحيّ، في هذه المعية اللّيتورجيّة.

(يتبع)